

ملك الموت وقبض الأرواح

سؤال: كيف يستطيع ملك الموت وحده القيام بقبض أرواح العديد من الذين يموتون في لحظة واحدة؟

الجواب: نرى في هذا السؤال كيف أن المقاييس البشرية تخدع الإنسان. فكما أن تشبيه الملائكة بالإنسان خطأ، كذلك من الخطأ البحث عن آثار الروح ووظائفها في الجسد. لذا فلا يمكن الإجابة على هذا السؤال قبل القيام بإيضاح الخطأ المصطلحي، أي يجب أولاً معرفة نقاط الانحراف في السؤال ثم القيام بالإجابة.

بما أن الملائكة يختلف عالمها عن عالمنا، فإن طبيعتها وماهيتها ووظائفها مختلفة تماماً عن عالمنا. لذا فإن من الخطأ إعطاء أي حكم دون النظر إلى عالمها الخاص ودون التفكير بماهيتها ووظائفها. لذا يجب معرفتها من هذا الجانب أولاً.

كلمة الملائكة مشتقة من كلمة "المَلَك" بمعنى القوة، أو من "المَلَك" بمعنى الرسول. فمن حيث الاشتقاق الأول يكون المعنى: القوي جداً. ومن حيث الاشتقاق الثاني يكون المعنى: الرسول المبلِّغ أوامر الله تعالى. هذه الأوصاف الممتازة موجودة في عموم الملائكة التي خلقها الله تعالى وهي ضرورية لدى الملائكة الموكِّلين بتبليغ الوحي الإلهي خاصة. وهذه المخلوقات السامية، -بدءاً من الملائكة المكلفين بمراقبة الحياة والممات، وانتهاء بحمّلة العرش المبهورين بالحضرة الإلهية- مكلفةٌ وموكّلةٌ بتنفيذ الأوامر الإلهية ومشاهدتها.

فكل الأعمال بدءًا من العالم الكبير (الكون) وانتهاءً بالعالم الصغير (الذرة)، وكل التغييرات والتركيبات والتحوّلات تقع بإشراف ومراقبة هذه الكائنات المتميزة السامية. كما تقوم هذه الكائنات القوية الأمانة بتبليغ التشريعات والأوامر الإلهية التي مصدرها صفة الكلام. فإن أخذنا بنظر الاعتبار قيامها بأعمال كونية مدهشة اعتبارًا من الإشراف على قوانين العامة للجذب والدفع وانتهاءً بالحركة المنتظمة للإلكترونات حول نواة الذرات.. إذا أخذنا هذه الأعمال المدهشة الدقيقة الصعبة بعين الاعتبار علمنا مدى القوة والأمانة التي تتصف بها.

الوظائف والمهمات التي تقوم بها الملائكة كثيرة ومتعددة جدًّا، فلا يمكن تصور وقوع حادثة خارج مهامهم... لا تنزل قطرة مطر، ولا يبرق برق من دونها، أي إن جميع القوانين الكونية والفطرية تجري بواسطتهم، أي بواسطة هذه القوى المدركة الواعية، كلٌّ حسب قابليته واستعداداته التي وهبها صاحب الملك والقوة عز وجل. كما يرد بواسطتها الإلهام والوحي الإلهي المرسل لتوجيه وتنظيم وتصحيح سلوك الإنسان الذي هو أشرف مخلوقات الله تعالى.

إذا فنظرنا إلى القدرة والقوة الهائلة المعطاة لها لمباشرة وظيفتها بوصفها وكيلة على شؤون الخلق، والقيام بمهام عديدة بدءًا من الذرات إلى السدم، ونظرًا لكونها جهزت بقوة وقدرة ملكوتية لأداء وظائفها، فإن تشبيه الملائكة بالإنسان وتوهم أن القيود الضرورية الموجودة أمام البشر تقيدهم أيضًا إنما هو جهل وانحراف في التصور وفي التفكير.

أجل، لو كانت الملائكة تحمل جسدًا ماديًا مثل جسد الإنسان المعرض للتحلل، ولو كان الزمن يتحكم فيها ويجري حكمه عليها مثلما يجريه على سائر الأحياء، لكنّا محقين في اتخاذ مقياس بشري تجاهها. ولكن هناك بونًا شاسعًا يتعذر بسببه القياس بينهما لأنهما عالمان مختلفان.

ثم إن الملائكة تختلف عن الإنسان من ناحية الخلق. وهذا الفرق ناشئ عن المساحة الواسعة لمهامها ووظائفها. فالطبيعة النورية في خلقها تجعلها أكثر نفوذًا وسيّالةً. لذا فهي تملك قابلية الانعكاس في لحظة واحدة على أرواح عديدة، وقابلية المشاهدة من قبل أنظار عديدة في اللحظة نفسها، ويملك الملك الواحد قابلية التجلي بصور مختلفة. وفي حديث ترويه أمنا عائشة رضي الله عنها عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ"^(٧٦)، لذا فهي تملك خصائص النور.

كل جسم من الأجسام اللطيفة -مثل الشمس- يمكن أن يظهر أي واحد منه في عدة أماكن بانعكاسه في كل جسم شفاف، ويستطيع الدخول في بؤبؤ كل عين. والملائكة التي تحمل صفات النور وخصائصه تستطيع التعامل في اللحظة نفسها مع آلاف الأرواح.

علمًا بأن الملائكة التي تملك ماهيةً خفيفةً ولطيفةً تختلف اختلافًا كبيرًا عن الأشياء المادية والكثيفة مثل الشمس، فهي تملك قابلية التشكل في أشكال وصور مختلفة، كما تستطيع التمثل في الوقت نفسه في أشكال مختلفة. والتمثل معروف عند المتدينين منذ القديم ولكنه أصبح الآن موضوعًا شائعًا ومعروفًا لدى محافل الطبقة الأرستقراطية إلى درجة كبيرة بحيث أصبحت شيئًا قطعيًا كقطع النواجذ المأخوذة من التجارب.

ولا يمر يوم إلا وتنشر فيه الجرائد والمجلات خبرًا عن ظاهرة من هذه الظواهر الروحية الغريبة فيما يدعى في علم تحضير الأرواح بـ"الجسم السيال"^(٧٧) أو "مثيل الإنسان"^(٧٧). فترد الأخبار مثلًا عن مشاهدة إنسان في مكان بعيد عن مكان وجوده، وإظهار هذا الجسم المثل قدرات

(٧٦) مسلم: الزهد والرفائق، ٦٠، مسند الإمام أحمد: ١٥٣/٦.

(٧٧) مثيل الإنسان: لوحظ وقوع حالات نادرة يظهر فيها الإنسان في مكانين مختلفين في الوقت نفسه، وتدعى صورة الإنسان الثاني الظاهر في ذلك المكان البعيد أو المختلف عن مكان الإنسان الحقيقي بـ"مثيل الإنسان". (المترجم)

عجيبة وقابليات فائقة. ومهما كان أصل المسألة فإن للموجودات اللطيفة كالأرواح قابلية أكثر سياليةً وقدرات أكبر من الأجسام المادية وحرية حركةٍ وتقلُّلٍ أوسع من الإنسان العادي. وهذه السيالية والشفافية التي تتجاوز المادة تشير إلى أن نشاط وفعالية الجسم المثل أكبر من الإنسان العادي، كما أن الملائكة تملك قابلية أكبر من قابلية الروح في هذا المجال. وهذا يشير إلى كونها فوق القوانين الطبيعية السارية في عالمنا.

إن تمثّل الملائكة والأرواح كان معروفًا منذ القديم. وقام كثير من أرباب القلوب وعلى رأسهم الأنبياء بنقل مشاهداتهم في هذا الموضوع، واستشهدوا في هذا أيضًا بمشاهدة كثير من عوام الناس. كان جبريل عليه السلام يظهر في صور مختلفة، وذلك حسب المناسبة التي يظهر فيها. فإن كانت المناسبة التي يظهر فيها هي مهمة الرسول وتبليغ الوحي ظهر بالمظهر المناسب لهذه المهمة، وإن ظهر في أثناء الحرب ظهر في صورة المحارب. وهذه أمثلة على التمثل، والتمثل وارد بالنسبة لعموم الملائكة وخصوصًا جبريل عليه السلام الذي كان يتمثل أحيانًا في صورة الصحابي دحية الكلبي رضي الله عنه وتمثل ملك آخر - لا نعرف اسمه - في معركة أحد في صورة الصحابي مصعب بن عمير رضي الله عنه فقاتل دفاعًا عن الرسول صلى الله عليه وسلم في أصعب مراحل القتال حتى المساء حيث جاء في الرواية بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أُقَدِمُ مُصْعَبٌ"، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَمْ يُقْتَلْ مُصْعَبٌ؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم: "بَلَى، وَلَكِنَّ مَلَكًا قَامَ مَكَانَهُ، وَتَسَمَّى بِاسْمِهِ"^(٧٨). كما تمثلت ملائكة آخرون في صورة الزبير بن العوام رضي الله عنه في معركة بدر، وشدّوا من عزيمة المؤمنين.

هناك أمثلة لا تعد ولا تحصى حول اتصال بعض أرباب القلوب وأولياء الله مع أرباب العالم الآخر. أما الاتصال بوساطة الرؤى فهو شيء لا يمكن إنكاره، فهو شائع حتى عند عامة الناس. فيكاد كل إنسان يملك شواهد من قيام أحد الأرواح التي يعرفها بإرشاده وإنارة الطريق أمامه عند ظهوره في رؤياه. ولكن هناك بعض من يدعي أن الرؤى ليست إلا حركة العقل الباطن، أي دفعوا هذا الموضوع إلى ظلام دامس لا يرى فيه شيء، فيا ويل الجهل!

ونحن إذ نحيل الذين يرغبون في التفاصيل حول الملائكة والتمثل والأرواح إلى المراجع والمصادر الخاصة بهذا الموضوع. فإننا نستطيع القول في النهاية: إنه كما يظهر لكل موجود مثيله في المرأة كذلك تستطيع الملائكة التمثل في كل شيء يكون مرآة لها. تظهر الملائكة لا كصورة فقط - كما هي الحال عند الأجسام المادية - بل بكل صفاتها ومزاياها.

ولا يضير الروح أو الملك في هذا الأمر أنه فرد واحد، لأنه يستطيع أن ينعكس من مكانه كشعاع فيصل إلى أي مكان يريد ويقيم بالوظيفة التي يريد، ولا يعوقه في هذا أي شيء... لا البعد ولا المسافة، ولا كثرة عدد الذين يجب الوصول إليهم. فكما أن الشمس مع كونها شمساً واحدة تستطيع الوصول إلى كل مكان توجد فيه مرآة تعكس نورها، وتجري تأثيرها هناك، كذلك تستطيع الملائكة وهي مخلوقات نورانية الظهور في كل مكان وتقوم بمهامها هناك، فتنفخ الحياة أو تقبض الأرواح.

ثم إن الله تعالى هو الذي يقبض الأرواح في الحقيقة. وليس ملك الموت سوى مراقب وستار. والله الشهيد البصير قادر على فعل ما لا يستطيع الخيال والعقل تصوره، ويخلق في اللحظة نفسها مليارات الكائنات أو يفني ويميت المليارات من الكائنات. فهذه هي القدرة المطلقة

التي تَعْلَم وتَرى الأشياء كلها في كل لحظة، وهذا هو العلم المحيط الذي لا يمكن لعقل تصوره والذي يرى كل ذرة في الكون ويقدر على إنجاز أعمال بعدد هذه الذرات في آن واحد، وقبض الأرواح جميعها. وسواء أكان الله تعالى هو القابض للأرواح أم كان ملك الموت فإن من حان أجله تُقبض روحه.

ولتقريب الموضوع إلى الأذهان أضرب هذا المثل: لتأمل في حال آلاف من أجهزة المذياع (الراديو) وأجهزة الاستقبال التي تعمل على تردد معين. فإذا قمنا بالضغط على زرّ لجهاز إرسال يعمل على هذا التردد سُمِعَتِ الإشارات وأصوات أحرف المورس في جميع هذه الراديوات في اللحظة نفسها. كذلك فإن المخلوقات بكل عجزها وفقرها متوجهة نحو صاحب القدرة والعزة، وعندما يحين الوقت الموعود سواء في خلقها وإيجادها أو في قبض روحها، تشعر في روحها بإشارة معينة. فإذا كان الإنسان العاجز يستطيع بالضغط على زر واحد التأثير في أجهزة متعددة بعيدة عنه آلاف الكيلومترات، فكيف يعجز صاحب القدرة المنزه عن العجز والقصور والذي ترتبط به نفوسنا وأرواحنا عن التأثير فيها مع أن الإنسان ليس إلا جهازاً حيّاً، وكيف يعجز -حاشاه- عن نفخ الروح أو قبضه متى شاء؟

إذا وضعنا كل هذا جانباً فهناك نظرات وآراء مختلفة حول قبض الأرواح:

١- إن الله تعالى -كما ذكرنا سابقاً- هو واهب الأرواح وقابضها، وليس ملك الموت إلا واسطة أو ستاراً أو رقيباً.

٢- إن الله فوّض قبض الأرواح إلى ملك الموت وأذن له بذلك. وقد ضربنا الأمثلة على أن الفرد الواحد والملك الواحد يستطيع وحده إنجاز هذا العمل.

٣- هناك العديد من الملائكة يعمل تحت إدارتهم ملائكة آخرون مكلفون بأعمال كونية عديدة وبمراقبتها. لذا فهناك ملائكة عديدون تحت إمرة ملك الموت يساعدونه في عملية قبض الأرواح. وهم أصناف عديدة، فصنف يقوم بقبض أرواح المؤمنين قبضاً سهلاً ويسيراً ودون ألم، وصنف يقبض أرواح المجرمين قبضاً أليماً، وصنف يسرع بهذه الأرواح إلى ربها: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ ﴿وَالسَّائِحَاتِ سَبْحًا﴾ ﴿فَالسَّائِقَاتِ سَبْعًا﴾ ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ (سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ١٧٩-٥). فهناك ملائكة كُثُر لقبض الأرواح، وكلها تعمل تحت إمرة ملك الموت، وهو يقوم -بأمر من الله تعالى- بإرسال ملائكة مختلفين حسب اختلاف المحتضر إن كان شقيماً أم سعيداً بقبض روحه.

لذا نستطيع القول جواباً على السؤال إن هناك انحرافاً في الفهم منذ البداية، أي هناك خطأ في تشبيه الملائكة بالإنسان، مع أن الملائكة لا تشبه الإنسان أبداً لا من ناحية الخلق ولا من ناحية الماهية، كما أن طبيعة عملها وإجراءاتها مختلفة عنه تماماً. فهي تتمثل -مثل روح الإنسان- في لحظة واحدة في أماكن عديدة في اللحظة نفسها، وتتعامل مع أشياء عديدة في تلك اللحظة نفسها. وفي أيامنا الحالية انتشر تحضير الأرواح والوسطاء ومحاولة تأسيس علاقة مع الكائنات غير المرئية، وانتشر التنويم المغناطيسي وعلم الروحانية (*Spiritualism*) وغيرها من الفعاليات التي تتجاوز القوانين الفيزيائية والتي تشير إلى وجود قوانين أخرى لها خاصية الشعور.

وهذه الأمور أصبحت شائعة إلى درجة أن اكتسبت قناعةً قطعيةً. لذا فإن الملائكة التي تشبه هذه الموجودات تستطيع القيام بوظائف أضعاف هذه الموجودات، ولا سيما وظيفة مهمة قبض الأرواح، ففي هذه

العملية يكون الحي الذي حان أجله في حالة استعداد وتلاؤم وعلى نفس التردد مع هؤلاء الملائكة. ثم إن المكلفين بهذه المهمة ليسوا واحداً، بل كثيرون إلى درجة يصعب عدّها. وإذا أخذنا في نظر الاعتبار أن من الممكن إرسال ملك واحد لقبض روح أي محتضّر تبين لنا عدم وجود مشكلة في الأمر.

والله أعلم.

الأماكن التي أرسل فيها الأنبياء

سؤال: بما أن جميع الأنبياء ظهوروا في شبه جزيرة العرب فكيف يكون الذين يعيشون في البلدان الأخرى مسؤولين من ناحية العقيدة والعمل؟

الجواب: لهذا السؤال شقان:

الأول: ظهور الأنبياء في شبه جزيرة العرب فقط وعدم ظهورهم في البلدان والقارات الأخرى.

الثاني: ليس من العدل تعذيب الأمم التي لم يرسل لها الأنبياء.

والآن لتتناول كل شق على حدة، إلا أنه من المفيد بل من الضروري التنبيه أولاً إلى مكانة الأنبياء بين الناس.

النبوة مرتبة سامية جداً. فهي الغصن المُدلى من الحق تعالى إلى الخلق، وهي قلب الوجود ولسانه من وراء هذا العالم الأرضي. وفيها تتجلى عملية سمو وعملية اختيار واصطفاء وعملية تكليف وإرسال. وليس النبي مجرد عبقرى يملك عقلاً كبيراً يستطيع النفوذ إلى صلب الأحداث، فالنبي هو الإنسان الأفق الذي جميع ملكاته وقابلياته في ذروة الحركة والفعالية وفي نشاط دائمى مَوَّج يرسم في تموجه أفقاً جديداً من السموم، وهذه الفعالية متوجهة إلى استقبال النسائم الإلهية في كل أمر. الجسم عنده في إمرة الروح والعقل وفي إمرة القلب. ونظره متوجه على الدوام إلى عالم الأسماء والصفات الإلهية، وتصل قدمه

إلى كل ما يصل إليه بصره، أي هما دائماً معاً. أما المشاعر عند النبي فتكون ناميةً ومفتحةً حتى آخر برعم فيها. وقابليته في الرؤية والسمع والإدراك تتجاوز حدودها الاعتيادية والطبيعية. ولا يمكننا أبداً في إطار قابليتنا في التحليل والتركيب أن نصل أو حتى أن نقرب من آفاق علوم الأنبياء، تلك العلوم التي تكاد تتجاوز الحدود الطبيعية.

تستطيع الإنسانية بواسطة الأنبياء اكتشاف ماهية الأشياء. ولا يمكن النفوذ الكامل إلى طبيعة الأشياء وحقائق الأحداث خارج إرشادهم وتعليمهم، ولا التدخل الصائب في الطبيعة دون إرشادهم.

كانت الوظيفة الأولى والدرس الأول لهم هو تقديم أسرار الطبيعة وقوانينها الإلهية إلى البشرية، وكان هذا الدرس خاصاً بالمبتدئين؛ ثم قاموا بشرح الأسماء والصفات للخالق العظيم الذي يشهد له الكون والوجود كله؛ أما بالنسبة لذاته تعالى التي تعجز عن إدراكها العقول فقد وضعوا لهم ميزاناً دقيقاً ووجهوهم إلى اتخاذ الحيطة والحذر في هذا الموضوع. فذلك الخالق الذي يمسك كل هذه العوالم بيد قدرته، بدءاً من الذرات حتى مجموعات المجرات، ويسري فيها حكمه، ويقبلها كيف يشاء كحبات سبحة ويحولها من حال إلى حال، ومن شكل إلى شكل... لو لم تكن هناك بيانات الأنبياء الواضحة حول صفات تلك الذات العلوية المقدسة لَمَا أمكن إطلاق أي حكم صحيح أو التفكيك بشكل صحيح في حقه ﷻ.

إذاً فإن النبي إضافة إلى نفوذه إلى قلب الأشياء وحقائق الأحداث وإلقائه علينا دروساً في الحياة بكاملها إلا أن أهم دروسه هو شرح صفات وأسماء صاحب القدرة المطلقة والعلاقات والموازانات الدقيقة الموجودة بين أسماءه الحسنی وصفاته العليا وبين الذات الإلهية.

لذا فليس هناك أي احتمال أن يخلو أو يحرم أي بلد من البلدان ولا أي زمن من الأزمان من فيض أنوارهم. وكيف يمكن ورود هذا الاحتمال والبشرية لم تعرف خارج نطاق إرشاداتهم أي حكم صافٍ واضح لعالم الوجود، ولم تستطع الارتفاع فوق شكوك وشبهه وتناقض الفلسفة وتردها وضبايتها في هذا الخصوص. لذا فإن العقل والحكمة والقرآن يتفقون على أن كل أمة وكل قارة وكل عهد لا تخلو من إرشاد نبي، ولا يمكن العكس.

فبينما نرى حاجة كل متحف صغير أو معرض صغير إلى مسؤولين عن التشريفات وإلى أدلاء، وزيارة هذه المتاحف والمعارض تفقد معناها وغايتها وتكون عبثاً في غياب المرشدين والأدلاء؛ لذا فكيف يمكن تصور مجيء الزوار إلى القصر العظيم لهذا الكون من دون وجود أدلاء ومرشدين يدلون الزوار على خصائص هذا القصر العظيم وإلى أسراره؟

وهل هناك أي احتمال أن القادر المطلق ﷻ الذي خلق هذا الكون وهذا النظام، وجعل هذا الكون معرضاً للفن الإلهي بأروع صورته، والذي عرف نفسه لمشاهديه بآثاره وبدائعها، فهل يعقل أنه بعد عرضه كل هذه الآثار والمعارض الربانية لا يختار أشخاصاً متميزين ليقوموا بتعريف ذاته وصفاته وأسمائه إلى هؤلاء المشاهدين المشتاقين فيكون كل ما عمله من أعمال حكيمة - حاشا لله - عبثاً، ويعرض أفعاله الحكيمة للاتهام؟ بينما كل شيء يخبرنا بلسان واحد وبنعمة واحدة بأن القادر المطلق حكيم في كل شؤونه منزّه عن العبث متعال عن ذلك.

هذا علاوة على أن الله تعالى يقول في كتابه الكريم عن ظهور الأنبياء في كل أمة ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (سورة النحل: ١٦٠/٣٦). ولكن البشرية سرعان ما نسيت الدروس التي تلققتها

من هؤلاء الأشخاص العظام، وانحرفت عن الصراط السوي بتقديسها لهؤلاء الأنبياء وتأليههم، فعادت إلى الوثنية مرة أخرى. وهناك مئات من الأوثان التي خلقها الخيال الإنساني ممتدة من جبل الآلهة في اليونان حتى نهر الجانج في الهند، وهذه الأديان مختلفة في وضعها وشكلها الحالي عن وضعها وشكلها في بداية ظهورها اختلافًا كبيرًا.

لذا لا يمكننا تقييم "كونفشيوس" الصين أو "براهما" و "بوذا" الهند تقييماً صحيحاً إلا بعد التعرف على ظروف عهودهم وما جاؤوا به بداية. فالزمن يبلي كل شيء، وتتغير خلاله نظرات الإنسان وقيمه. لذا فمن الصعوبة بمكان أن نعرف إلى أي مدى تغيرت صورة هؤلاء وابتعدت عن أصلها بسبب عوامل الزمان الذي يغير كل شيء وبسبب فكر الإنسان التغيُّر والتحول شأنه.

لو لم يرقم القرآن الكريم -بيانه المزيل لكل الشبه- بإعلامنا وإخبارنا عن عيسى عليه السلام لما كان بالإمكان معرفة حقيقته داخل جدران الكنائس ضمن مفاهيم القسيسين والرهبان الذين يقومون حول تماثيل عيسى عليه السلام بمراسيم اختلطت بها شعائر الوثنية. إذ إن رفع البشر إلى مرتبة الألوهية وتنزيل الذات الإلهية إلى مرتبة البشر، والدخول في تناقض عقلي صارخ من أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد وتحريف العقيدة وتشويهها وتزييف العقل والمنطق لهُو أعظم صفاقة وجحود لله سبحانه.

ونحن نشاهد الآن أن الشعائر المسيحية المحرفة في معابدها لا تختلف كثيراً من ناحية الشكل عن الوثنية اليونانية والرومانية. ولولا البيان القرآني وتوضيحاته فإن من يشاهد الكنيسة وما يجري فيها يصعب عليه تمييز المسيح عليه السلام عن "أبولو".

لذا فإذا كانت المسيحية قد حرفت كتابها وشوّهت صورة نبيها كل هذا التحريف والتشويه وهي قريبة الظهور من عصرنا، إذا فكم من مسيح وجد في القرون الأبعد وكم منهم تعرض إلى تحوير دينه وتحريف صورته في أذهان الناس. عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "مَا كَانَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ لَهُ حَوَارِيُونَ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ وَيَسْتَتُونَ بِسُنَّتِهِ ثُمَّ يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِمْ أَقْوَامٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا يُنْكِرُونَ"^(٧٩)، وهذا مهم جداً. أجل، فكم من دين نراه الآن ديناً باطلاً نبع من نبع صاف في بدايته وكان الوحي مصدره، ولكنه نتيجة جهل أتباعه والعداء الظالم لأعدائه انقلب بجمع أسسه إلى مجموعة من الخرافات والأوهام.

إذاً فإن معظم الأديان ذات المظاهر الباطلة والتي استمرت ووصلت إلى أيامنا الحالية كانت مستندة في الماضي إلى أسس متينة صالحة صافية في الأكثر. والظاهر أن كل عصر كان يحمل سمة وختم نبي من الأنبياء.

إن إسناد النبوة إلى شخص ليس بنبي يُعد كفراً ككفر إنكار نبوة نبي. إن الإنسان لا يملك نفسه من النظر نظرة شك إلى منشأ البوذية أو الاقتراب بحذر كبير من "البراهمة". بل يجب البحث حتى عمّا وراء الفلسفة العقيمة الضيقة للكونفوشيوسية أيضاً. وأعتقد أن من الاحتياط النظر إلى "الشامانية"^(٨٠) على أساس أنها تعرضت لكثير من التأويلات.

وسواء أكانت منابع هذه الأديان وبداياتها صافية أم يشوبها بعض الكدر فإنه مما لا يختلف فيه أحد أنها كانت مختلفة عن وضعها الحالي. فهي تعرضت إما لتآكل الزمن، أو تعرضت لتراكمات وإضافات جديدة

(٧٩) صحيح ابن حبان: ٧٣/١٤.

(٨٠) الشامانية: دين بدائي من أديان شمالي آسيا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، وإن هذا العالم لا يستجيب إلا للشامان وهو كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المنحأ والسيطرة على الأحداث. (عن قاموس المورد)

مما أدى إلى تغييرها واختلافها عن حالها الأول. ولو فرضنا المستحيل ورجع مؤسسوها إلى الحياة مرة أخرى لما عرفوا الأديان التي جاؤوا بها.

هناك أديان كثيرة في الدنيا تعرضت للتحريف والتغيير، ومن الضروري قبول أن القسم الأكبر منها كانت صافية المنبع. والقرآن الكريم يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (سُورَةُ فَاطِرٍ: ٢٤/٣٥)، فيعطي بذلك حكماً عالمياً شاملاً. ولكننا لا نعرف من الأنبياء الذين ظهروا في كل العالم والذي يبلغ عددهم حسب إحدى الروايات ١٢٤ ألف نبي^(٨١). لا نعرف سوى ٢٥ (أو ٢٨) نبياً. ومع ذلك فنحن لا نعرف أماكن وأزمنة هؤلاء الأنبياء ولا نملك معلومات كافية عنهم.

ثم إننا غير مكلفين بمعرفة جميع الأنبياء الذين جاؤوا إلى الدنيا. والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (سُورَةُ غَافِرٍ: ٧٨/٤٠)، أي إنه نبه إلى عدم الخوض أو المماراة في موضوع الأنبياء الذين لم يقصّ خبرهم علينا.

ولكن من المعلوم من علم تاريخ الأديان والفلسفة والأنتروبولوجيا وجود نقاط مشتركة عديدة في العقيدة بين كثير من المجتمعات الإنسانية مع أنها متباعدة بعضها عن بعض بعداً كبيراً. فمثلاً يلاحظ في جميعها التوجه من التعددية إلى الواحدية. وعند التعرض إلى مصيبة كبيرة لا يمكن تحملها يُبذ كل شيء جانباً وتفتح الأيدي في حضرة ذات عليّة، وترفع الأيدي إلى الأعلى دائماً... أي هناك تشابه في مظاهر السلوك والتصرف عندما يتعلق الأمر بشيء وراء الطبيعة. وهذا يشير إلى وحدة المنبع ووحدة المعلّم. فمن السكان الأصليين في جزر الكناري إلى الملايا، ومن الهنود الحمر إلى قبائل المومو نرى الشعائر الدينية نفسها، والألوان والديكور نفسه والأنغام نفسها أو تشابه فيما بينها.

(٨١) مسند الإمام أحمد: ٢٦٥/٥؛ صحيح ابن حبان: ١٧٧/٢؛ المستدرک للحاکم: ٦٥٢/٢.

والملاحظات التي سجلها الأستاذ الدكتور مصطفى محمود حول قبيلتين وحشيتين وبدائيتين جداً تؤيد هذا الأمر. إذ يقول الدكتور مصطفى محمود بأن قبيلة المومو تعتقد بإله اسمه "موجاي"، وهذا إله واحد في ذاته وفي إجراءاته، وهو لم يُولَد من أحد ولم يلد أحداً، لا شبيه له ولا ند، لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأفهام، ولكنه يُعرف بآثاره. وينقل عن قبيلة "نيام نيام" أشياء مشابهة لعقيدة قبيلة المومو، إذ يعتقدون بإله حاكم على كل شيء، قادر على أن يحرك ويوجه كل شيء في الغابة حسب إرادته ويرسل شرارات البرق على الأشجار... أي يؤمنون بالمعبود المطلق.

وكما تبين فإن العقيدة الإلهية لهؤلاء تتشابه كثيراً مع ما ورد في القرآن الكريم حول الذات الإلهية، بل نستطيع أن نقول إن المومو يعبرون تقريباً عن المعنى الوارد في سورة الإخلاص. إذاً فمن أين استطاع هؤلاء الأفوام -البدائيون البعيدون جداً عن المدينة وعن ساحة تأثير الأنبياء الذين نعرفهم- الوصول إلى مثل هذه العقيدة الإلهية العميقة والصافية في الوقت الذي لم يصلوا إلى معرفة أبسط قوانين الحياة؟ إذاً فالآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (سورة يونس: ٤٧/١٠) توضح حقيقة عالمية شاملة، وليست هناك أرض خارجة عن نطاقها.

وسمعت من الأستاذ "عادل زينل" أستاذ الرياضيات من مدينة "كركوك" في العراق والذي تعرفت به سنة ١٩٦٨م شيئاً شبيهاً بما نقله الدكتور مصطفى محمود، إذ قال بأنه خلال دراسته العليا في الولايات المتحدة الأمريكية كان كثيراً ما يلتقي بسكان أمريكا القدماء من الهنود الحمر وأنه استغرب جداً من بعض أمورهم. قال "كانوا يرتبون شعائر دينية فيما بينهم، وكانت هذه الشعائر منسجمة مع عقيدة التوحيد.

إذ رأيتهم يؤمنون بآله لا يأكل ولا يشرب ولا يمر عليه الزمن - أي فوق الزمن - وكانوا يكررون قولهم بأن كل ما يجري في الكون إنما يجري حسب إرادته ومشئته، وكذلك يتحدثون عن كثير من الصفات السلبية والوجودية. ولم تكن مثل هذه الأفكار العالية السامية تتلاءم أو تتوازي مع حياتهم البدوية البسيطة والبدائية“.

إذاً فإنه لا يمكن تفسير العقيدة بين الشرق والغرب وبين الأطراف القاصية من الدنيا إلا بالرسول الذين أرسلهم الله تعالى إلى هذه البلدان وإلى هذه الأرجاء، لأنه يستحيل إرجاع مثل هذه العقيدة التوحيدية المتوازنة التي لا يستطيع إدراكها كبار الفلاسفة إلى اجتهاد وإلى فكر هؤلاء الأقوام البدائيين من أمثال قبائل المومو أو قبائل الـ”نيام نيام“ أو قبائل المايا. إذاً فإن صاحب الرحمة الواسعة الذي لم يترك النحل والنمل دون أم، لم يترك نوع البشر دون أنبياء، بل أرسل الأنبياء إلى جميع بقاع الأرض لينشروا فيها النور.

والآن لنأت إلى الشق الثاني من السؤال وهو هل يُعذب من لم ير نبياً؟

لقد رأينا في جواب الشق الأول أن أي بقعة من الأرض لم تخل من نور النبوة. ومع أنه مرت أوقات جفاف مؤقتة، إلا أن الرحمة الإلهية سرعان ما كانت تهطل أمطاراً غزيرة. لذا فكل فرد سمع - قليلاً كان أم كثيراً - بهذه الرحمة أو شاهدها أو ذاقها أو شبع منها. ولكن في البقاع التي كان التحريف فيها سريعاً نرى سرعة هجوم زمن ”الفترة“ بظلامه على تلك البقاع، أي إن فترات النور والظلام كانت متعاقبة، والذين وقعوا دون إرادتهم في فترة من فترات الظلام نرى الرحمة الإلهية تنجدهم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ١٧/١٥). إذاً فالإنذار أولاً، والتكليف ثانياً، ثم العذاب أو الرحمة.

نعم، لأنظمة المذاهب آراء مختلفة في فروع هذا الأمر، فالإمام الماتريدي وأتباعه مثلاً لا يرى أي عذر لأي شخص في عدم معرفة وجود الله ولا سيما بعد آلاف البراهين والأدلة التي تشير إليه والتي يزخر بها الكون. أما الأشعرية فيقولون بأن معنى الآية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (سورة الإِشْرَاءِ: ١٧/١٥) هو دليل على أن استحقاق العذاب لا يكون إلا بعد التبليغ.

وهناك من يوفق بين الرأيين فيقول: إن كان هناك شخص لم ير أي نبي ولكنه لم يعبد صنماً ولم يلحد بالله فهو من أهل النجاة، ذلك لأن هناك كثيراً من الناس المحرومين من قابلية التحليل والتركيب الفكري، كما لا يستطيعون استنباط المعاني من سير الأمور والأحداث. لذا يجب أولاً إرشاد أمثال هؤلاء، ثم نرى ما إذا كانوا يستحقون الثواب أو العقاب. ولكن إن كان هناك من اتخذ الكفر مهنة له ومسلماً، ويفلسف هذا الكفر، ويعلن الحرب على الله، فسيلقى جزاء إلحاده وكفره وإن كان في أقصى الأرض.

والنتيجة أنه ما من بقعة أو بلد خلا من الأنبياء، وأنه ما من زمن "فترة" طويل خال من الأنبياء. فإنسان كل عهد أخذ نصيبه من النسيم العطر الذي نشره نبي من الأنبياء. أما في الأماكن التي نُسِي فيها اسم النبي وذُكره وبهتت آثاره بمرور الزمن، فقد أطلق تعبير "الفترة" على هذه العهود حتى ظهور نبي آخر، ومثل هذه العهود -أي عهود الفترة- سيُغفر لأهلها ولكن بشرط ألا يكفروا بالله وألا يلحدوا به عن سابق قصد وشعور. والله تعالى المحيط بعلمه بكل شيء هو أعلم بالصواب.

حدوث الأرواح

سؤال: بما أن الأرواح غير متغيرة، إذا فهي ليست حادثة، ما قولكم في هذا؟

الجواب: هذه مسألة من المسائل العميقة في علم الكلام، وهي تحتوي على ما يأتي: نحن نقول بأن الكون متغير وعرضة للتبدل باستمرار، لذا نقول عن الكون إنه حادث، أي إنه كان معدوماً فخلق فيما بعد، وأنه سائر نحو الاضمحلال، ويتحرك بشكل دائم ويتحلل. ونقول "إن منظّم وبارئ هذا الكون المتحول مبرراً من التبدل والتغير"؛ أي يمكن إطلاق اسم مبدأ "رجوع المتبدل إلى غير المتبدل"، أي إن كل شيء متغير ومتبدل يدل ويشير ويرجع خلقه وأمره إلى الذات الأقدس المبرراً من التبدل والتغير والتحول، وهو الله ﷻ الواجب الوجود. وهو منزّه عن جميع العوارض الكونية والبشرية. لذا فالمسألة أعلاه ترد عند سرد هذه الصفات الإلهية، ويرد هنا سؤال وإشكال:

إن الله لا يتغير ولا يتبدل، لا يأكل ولا يشرب، وهو قديم، ووجوده من ذاته وهو أبدي كذلك.

أما بالنسبة للروح فهو بسيط، أي إنه غير متركب من مادة، وهو من عالم الأمر - كما جاء في القرآن - وليس من عالم الخلق (أي وجوده ليس ناشئاً من اجتماع الذرات)، بل هو قانون مثل القوانين الكونية، لطيف، ذو شعور، خلق بأمر من الله تعالى؛ أي إن الروح قانون مثل قانون الجاذبية

الموجودة بين نواة الذرة والإلكترونات ومثل قانون النمو الموجود داخل البذرة. ولكنه يملك شعورًا، بينما لا تملك القوانين الأخرى حياةً ولا شعورًا.

الروح بسيط بمعنى أنه غير مركَّب من المادة، لذا لا يتحلل ولا يتأين (أي لا يتحلل إلى أيونات)، وله وجود ثابت. لذا قد يخطر على بال البعض بأنه يشبه الله تعالى -حاشا لله- في هذه الناحية. أي كما أن الله منزه عن التغيُّر فالروح أيضًا لا يتغير... فما الفرق إذًا؟

إن الله تعالى منزه عن التبدل والتغير وعن الألوان والأشكال تنزهًا ذاتيًا. بينما خلق الروح بسيطًا بأمر الله تعالى. فالله خالق الروح مخلوق، والله قائم بذاته وموجود بذاته بينما الروح -وكذلك سائر الموجودات- قائمة به تعالى. فكل شيء يمد يده يطلب العون منه تعالى قائلاً ﴿وَأَيَّاكَ كَسْتَعِينُ﴾ (سورة الفاتحة: ٥/١)، وكذلك الروح فهو مخلوق من المخلوقات المادَّةِ يَدُ الاستعانة والحاجة والسؤال إليه تعالى. ووجود الروح قائم بالله، أي هو موجود طالما استند إليه تعالى، فإن لم يستند إليه فَنِي. والله تعالى خلق الروح وجعله قانونًا ذا شعور مستندًا إلى قدرته تعالى وإرادته، ووجوده مستمر ودائم بهذه الصيغة فقط.

ولنضرب مثالًا يقرب هذا إلى الأذهان: إن للشمس ضياءً وشعاعًا وألوانًا، ونشاهد هذا في القمر أيضًا؛ ولكن إن افترضت فناء الشمس فإنك لن تستطيع تصور أي ضوء أو نور في القمر. فالنور الموجود في القمر أثر أو عرض من الأضواء الأصلية الموجودة في الشمس. فإن فنيت الشمس فلا يبقى هناك مجال لدوام واستمرار النور في القمر. فهل تستطيع أن تدعي في مثل هذه الحالة المساواة بين الشمس والقمر؟ كلا، والقرآن يصف القمر قائلاً ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (سورة الفرقان: ٦١/٢٥) ويصف ضوءه ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (سورة يونس: ٥/١٠) و﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾

(سُورَةُ نُوحٍ: ١٦/٧١)، بينما يصف الشمس: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ (سُورَةُ نُوحٍ: ١٦/٧١) و﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ (سُورَةُ النَّبَأِ: ١٣/٧٨). صحيح أن هذا المثال وهذا التشبيه لا يناسب مقام الألوهية السامية، ولكن كانت هناك حاجة إلى تشبيه مادي لكي تستطيع الأذهان فهم الموضوع.

وسيعطي الله تعالى البقاء والخلود إلى الأجساد أيضًا إضافةً إلى الأرواح في الآخرة. الله باق... وهم باقون... ولكن بقاءهم مرهون وقائم به تعالى، إن أراد أفعالهم جميعًا. أما وجوده هو تعالى فقائم به وبذاته... يمكن أن يفنى الجميع... أما الذات الأقدس فهو منزّه عن جميع العوارض ومبرأ منها.

إيجاد المعدوم وإفناء الموجود

سؤال: يقولون: ”لا وجود من العدم ولا عدم من الوجود“،
فهل هذا القول صحيح؟

الجواب: ينسب هذا القول إلى لافوازييه (*Lavoisier*)، وهو ادعاء محض، يقولون: المادة تتألف من الطاقة، وهي صورة متشكلة منها، فالمادة من الطاقة والطاقة من المادّة وهكذا دواليك، إذاً لا عدم من الوجود ولا وجود من العدم، فمثلاً الأحياء على الأرض إذا ماتوا تآكلوا وغدوا تراباً، فما يزالون موجودين وإن كانوا بصورة تراب، والهيدروجين في الشمس يتحول إلى هليوم، وتنتشر أشعتها وإشعاعاتها وموجاتها في أرجاء العالم، بل تمتد إلى عدة منظومات أخرى فتستفيد منها، فكيفية الوجود هي التي تتغير، أما الوجود نفسه فباقي.

أولاً: عندما يقول لافوازييه: ”لا وجود من العدم ولا عدم من الوجود“ يمكن أنه يريد بذلك أن الموجود لا يفنى بنفسه، ولا يوجد المعدوم أيضاً بنفسه. فلا قدرة للمصادفات والأسباب على الإيجاد والإفناء بل إن البشر وهم الذين يتمتعون بأكبر قابلية في الوجود لا طاقة لهم بإفناء موجود أو إيجاد معدوم، وهم إنما يقدرّون على تغيير مركبات الموجود فحسب، فالموجود يحافظ على وجوده ويظلّ المعدوم معدوماً إلى الأبد، أمّا إذا أسندنا الأمر إلى الحق سبحانه فسينقلب الحكم رأساً على عقب، فالله تعالى يُفني الموجود ويوجد المعدوم، فالمعاند القائل ”لا وجود من العدم“ وهو يرى في كلّ ربيع آلاًفاً من النباتات تُخلق من العدم، هو أولى بالعدم.

أجل، إن الله تبارك وتعالى يُفني الموجود ويوجد المعدوم، والحقُّ أنه لا اعتراض للافوازيه على هذا.

ثانياً: هل يحيط علمنا القاصر بمسألة الوجود والعدم ليصح مثل هذا الادعاء؟

منذ أبيقور وطاليس والناس يظنّون أن الذرّة هي أصغر أجزاء المادّة، أمّا اليوم فاكتشفوا أنها تتشكل من أجزاء أصغر، من إلكترونات فيها شحنات كهربائية سالبة، وبروتونات فيها شحنات إيجابية، ونيوترونات غير مشحونة، وكلها تدور حول نواة الذرة، ولم يكن لأحد علمٌ بهذه المسألة في الماضي، وأصبحت اليوم معلومةً لكل أحد، بل اكتشفوا الآن أن تلك الأجزاء تنشر موجات على الدوام.

فمعلوماتنا في تجدد مستمرّ، بل في كل لحظة تُخزّن معلومات جديدة في ذاكرتنا المعلوماتية، وبينما تطرأ على نظرية الذرة تغيرات عدّة، نشأت نظرية وحدة الطاقة الضوئية (الفوتون)، فصبّ العلماء جهودهم على الجسيمات.

نظنُّ أننا نعلم الكثير، بيد أن ما نعرفه عن الوجود بالنسبة لما نجعله ليس سوى قطرة في بحر.

كنا نظنّ حتى الأمس القريب أنّ كل شيء يتشكل من الذرات، أمّا اليوم فنظرية المادة المضادة تقول إن هناك "ذرة مضادة" تقابل الذرة، وبوسعنا أن نلاحظ هذا عند قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يس: ٣٦/٣٦).

أمعنوا النظر في الإيمان الذي لقّنه القرآن الكريم والحقائق العلمية التي أشار إليها: فمن كلّ شيء خلق سبحانه زوجين، من الذرّة

حتى الكواكب السيّارة، أمّا الأحد بلا شريك فهو واحد، لا يتجزأ ولا ينقسم، ولا يطعم ولا يشرب، ولا يحده زمان ولا مكان، ولا يدرك بالكم والكيف، فوجوده ذاتي، سبحانه ربّي الأجل الأعلى، فهو مبرأ ومنزه عن الحدوث وملابسة الحوادث.

إن مسألة المادة المضادة والذرة المضادة والبروتون المضاد والنيوترون المضاد التي اشتغل بها العلماء كثيراً في عالم الفيزياء والفيزياء الفلكية من أندرسون إلى أسيموف على اعتبار أنها نظرية جديدة لتثبت لنا قصر حدود معارفنا وقلة استيعابنا المعرفي. فالإنسان المغرور بعلمه يدرك من هذه الاكتشافات الحديثة أن علمه نقطة في بحر، فالإنسان كلما قرأ ازداد علمه وجهله على حد سواء.

وبعدما اكتشف أندرسون البوزترون، اكتشف شيئاً آخر يدور مكان الإلكترون. إن ما اكتشفه كان مشحوناً بشحنة موجبة، ومن المعلوم أن الإلكترون لا بد أن يكون مشحوناً بشحنة سالبة، وهذا يثبت أن هناك مادة مضادة تقابل المادة. وما زال العلماء يشتغلون الآن ويبدلون قصارى جهدهم لحلّ هذا السر. وإن واصلنا التعداد امتدّ بنا الموضوع إلى الجسيم المضاد والبروتون المضاد والنترون المضاد والإلكترون المضاد والعزوي المضاد... ولربما يقال مثل هذا للكائنات الحية - رغم أنه لم يُكتشف بعد - أعني النبات المضاد والإنسان المضاد والحيوان المضاد...

يقول أينشتاين وهو الذي ظهر صدق كثير من تنبؤاته: "المكان ذو البعد الثلاثي المرئي له بُعد رابع هو الزمان"، ولا ريب أن هذا منوط بالإدراك والحدس، فلو كنتم في هذا المكان مثلاً فنظرتكم إلى الأشياء ستختلف كلياً، فهناك مكان آخر غير ما نحن فيه، ولم يتشكل ذلكم المكان مطلقاً عن تحوّل مادة أخرى.

- ما العلاقة بين المادة والمادة المضادة؟

يقال إنهما مخلوقتان تتمكّن إحداهما من القضاء على الأخرى.

ويقول العلماء: ستقضي المادة على المادة المضادة في يوم ما؛ بيد أنه لا يوجد أي دليل يؤكد كلامهم.

لو فرضنا صدق بعض دعواهم وقلنا: إن كثافة المادة على الأرض أكثر من المادة المضادة، وكانتا متقابلتين عندما خُلِق الكون، ثم أكل كلٌّ منهما الآخر وقضى عليه، وأخيراً اقتضت أسباب شتّى بقاء بقيّة من المادة، فتفوقت على المادة المضادة، ومنها نشأ هذا العالم.

ما يقولونه تأباه العقول؛ فلو وقع مثل هذا لما كان يسوغ الكلام عن وجود مادّة مضادّة على الأرض، فمقتضى ذلك الادعاء أن المادة المضادة قد قضى عليها منذ بدء الخلق.

وبمنظار آخر: دعوى وجود ما هو مضاد للمادّة والذرة تشير إلى عالم خفيّ عنّا، فنحن خُلِقنا من مادة مرئية، ولربما خُلِق الجنّ من مادة شبيهة بالمادة المضادة؟ ولم يَأبى أناسٌ خلقَ الملائكة من نور؟ أو ليس من الممكن أن الملائكة أوتيت قوّة تمكّنهم من القضاء علينا؟

وفي سيرة الأنبياء ما قد يشير لذلك، ففي القرآن أن الملائكة نزلت وتمثّلت بصورة أشياء مادّيّة فأهلكت أقواماً، فلو أمرها الله تعالى وأذن لها لدمرت الكون بسلسلة إجراءات؛ فللمادة نسيج معين وللمادة المضادة آخر كما الجنّ والملائكة، فمثّل الدنيا والآخرة كمثّل المادة والمادّة المضادة، والمكان والمكان المضادّ، والزمان والزمان المضادّ.

كان النبي ﷺ يرى الجنة حقيقة، ويأخذ عناقيدها بيده، ويرى جهنم، ويُفزع ما فيها من أهوال وفظائع، فهو ﷺ كان يتصل بعالم المادة المضادّة وهو ما يزال في عالم المادة.

إذا إنَّ وجود العالم بمادَّته ومادَّته المضادَّة ليس شيئًا سيرًا، وعليه فلا محلَّ لقول قائل ”لا عدم من الوجود ولا وجود من العدم“ بناءً على قول مهجور قيل قبل قرن.

وأجدني مضطرًّا لأكرر أنَّ ما نعرفه عن العالم نَزَّرُ سير، فقدِيمًا قامت القيامة حول مادة الأثير، وحاول فريق إثبات وجودها بأدلة شتى، وأنكره آخرون مثل مايكلسون وفقًا لما دلَّت عليه نتائج أبحاثهم، فعارضهم لورينز هذه المرة قائلًا: ”كلا، لا يمكنكم أن تقولوا هذا“، فكانوا جميعًا يقولون ما هدَّت إليه أبحاثهم. أليس غريبًا إذا القطعُ بحكم في مسألة الوجود والعدم رغم كل ما لا نعلم ماهيته ومنه الإنسان؟

ويمكن أن تهلك يومًا ما واحدة من المادة والمادة المضادة، فتطور الأخرى، لربما ترون يومئذ كائنات تحسبونها بشرًا مثلكم، فإذا لمستموها إذا بأيديكم تنفذ من ناحية إلى أخرى، فسموها إن شئتم جنًّا أو ملائكةً أو أجسامًا لطيفةً.

بعد كل ما ذكر يتضح أنَّ وراء المادة عالمًا آخر، ”والذين يبحثون عن كل شيء في المادة، عقولهم في عيونهم؛ والعين في المعنويات عمياء“^(٨٢).

إن وراء المادة عالمًا عظيمًا واسعًا مغايرًا للمادة، عالم يتجلى فيه المعنى الحقيقي والنور الإلهي والذات الأحدية، ولا علم لنا به؛ فيد العلم قاصرة لا تبلغه.

ثالثًا: كلنا شاهد على إفناء ما هو موجود وإيجاد ما هو معدوم، فهو سبحانه يوجد النور في لحظة، ثم يُفنيه ويوجد الظلمة مكانه، ثم يفني الظلمة ويوجد النور مرة أخرى.

وما زالت هذه الأحداث تتكرر أمام أعيننا، وفي كل موسم يخلق من العدم نباتاً وحيوانات لم تكن شيئاً لنرى بأعيننا عمليات إيجاد المعدوم وإفناء الموجود، ويوم تفنى هذه المخلوقات كلها سنشهد كيف يفنى الوجود أيضاً، فينكشف سرُّ الآيةِ الكريمة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ٢٦/٥٥)، وسيفنى كل ما على الأرض بجوانبه المادية.

أجل، كل شيء فان، ولا باقى إلا الله ﷻ؛ فهو القادر على إفناء الموجود وإيجاد المعدوم.

والخلاصة أنَّ الأفكار الغائمة هي ملاذ الماديين بنصب إلهٍ ماديٍّ أو قُلْ نصب المادة إلهًا، بدلاً من الخالق البارئ الذي يفنى الموجود ويوجد المعدوم، والذي يُشعرنا بوجوده عن طريق عجائب صنعه في الكون؛ ويدعون أن المادة هي التي تدبّر أمر العالم، وما القوى الكيماوية والميكانيكية سوى خصائص لها.

والحق أن حقيقة المادة التي عدّوها كل شيء مجهولة؛ والغريب أن الماديين الملحدين لله لأنهم لا يعرفون كنهه - وهذا لأن الخلق عاجزون عن إدراكه - لا يرون بأساً في عدّ المادة التي لا يدركون حقيقتها أصل كل شيء.

دعك من تناقضاتهم، وهلم إلى شيء من منهجهم الفكري:

المادة عندهم هي أسس الخلق والوجود، فهي تتحكم في كل شيء، بل إن القوة أسيرة بيدها؛ فبينما يحاولون تفسير حقيقة الوجود تجدهم يحيلون أمر العالم وانتظام الكون وتوازنه إلى ذرات عمياء لا علم لها ولا وعي ولا إدراك.

وعلى الإنسان أن يكون أعمى بلا وعي لينظلي عليه هذا الخزي من خرافات لا صلة لها بالعلم.

ذاك هو أبرز ما بيننا وبين الماديين من اختلاف، فالمادة عندهم أساس كل شيء، وحركتها وتشكلها ذاتيان، وكأنهم يعتمدون في هذا على المشاهدة والتجربة.

أما نحن -معتمدين أيضاً على المشاهدة والتجربة والعلوم الطبيعية- فنؤمن بأن المادة موجود أعمى بلا وعي ولا إدراك، تستمد حركتها وقوتها وتأثيرها في المركبات من مدبرٍ عليمٍ قديرٍ وجوده ذاتيٍّ وأمرٌ كل شيء إلى علمه وقدرته عَلَّامٌ.

نعم، فالدوغمائية هي صبغة الماديين ومنهم المعاصرون، فلقضايا النظرية المحتملة يظهرونها علميةً قطعيةً، ليضلوا الناس؛ وهم أنفسهم من ثاروا على دوغمائية المسيحية لينكروا كل شيء، وإذا بهم يقعون أخيراً في الدوامة نفسها والغَيِّ نفسه لكن من طريق آخر.

ومستندهم في معظم دعاواهم التي أعلنوها إما تأويلات خاطئة أو أقيسة فاسدة؛ ومنها دعاوهم أنه لا عدم من الوجود ولا وجود من العدم، ولو جاء يوم أثبت فيه العلماء خطأ دعاواهم قطعاً فسيختلقون غيرها ليستندوا إليها في إلحادهم.

مصادر

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)؛ مصنف ابن أبي شيبة؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-٧، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

ابن أبي شيبة، أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي (ت: ٢٩٧هـ)؛ العرش وما رُوِي فيه؛ تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي؛ مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)؛ الكامل في التاريخ؛ تحقيق: عمر عبد السلام تدمري؛ دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١-١٠، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

ابن الهمام، محمد بن همام الدين عبد الواحد (ت: ٨٦هـ)؛ المسامرة في علم الكلام. ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ)؛ صحيح ابن حبان؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٨، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)؛ الإصابة في تمييز الصحابة؛ تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٨، الطبعة الأولى، ٥١٤١٥.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي (ت: ٢٣٠هـ)؛ الطبقات الكبرى؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٨، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)؛ البداية والنهاية؛ دار الفكر، ١-١٥، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٦ م.

_____، تفسير القرآن العظيم؛ تحقيق: سامي بن محمد سلامة؛ دار طيبة للنشر والتوزيع، ١-٨، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م.

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت: ٢١٣هـ)؛ السيرة النبوية؛ تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي؛ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، ١-٢، الطبعة الثانية، ١٣٧٥ هـ/١٩٥٥ م.

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ سنن أبي داود؛ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد؛ المكتبة العصرية، صيدا-بيروت؛ ١-٤.

أبو عوانة، يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النسابوري الإسفراييني (ت: ٣١٦هـ)؛ مسند أبي عوانة؛ تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٥، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م.

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)؛ دلائل النبوة؛ تحقيق: الدكتور محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس؛ دار النفائس، بيروت، ١-٢، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.

أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة، ١-٦.

الإسفراييني، طاهر بن محمد (ت: ٤٧١ هـ/١٠٧٨ م)؛ التبصير في الدين؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م.

الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر (ت: ٣٢٤هـ)؛ مقالات الإسلاميين؛ ١-٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦ هـ/٨٧٠ م)؛ الجامع الصحيح؛ تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر؛ دار طوق النجاة، ١-٩، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.

البيزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي (ت: ٢٩٢ هـ)؛ مسند البيزار؛ تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله

(من ١ إلى ٩) وعادل بن سعد (من ١٠ إلى ١٧) وصبري عبد الخالق الشافعي (١٨)؛ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١-١٨، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب (ت: ٤٦٣هـ)؛ تاريخ بغداد؛ تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف؛ دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١-١٦، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جردِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ السنن الكبرى؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ سنن الترمذي؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٥.

التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت: ١٠٤١هـ)؛ نفع الطيب؛ تحقيق: إحسان عباس؛ دار صادر-بيروت، لبنان، ١-٨.

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت: ٤٥٥هـ)؛ المستدرک علی الصحیحین؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٤، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

سعيد النورسي، بديع الزمان (ت: ١٩٦٠م)؛ من كليات رسائل النور: الكلمات؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

_____، من كليات رسائل النور: المكتوبات؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ مسند الشاميين؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١-٤، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

_____، المعجم الأوسط؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

_____، المعجم الكبير؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر (ت: ٣١٠هـ)؛ تاريخ الطبري؛ دار التراث، بيروت، ١-١١، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

_____، جامع البيان في تأويل القرآن؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ مؤسسة الرسالة، ١-٢٤، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

عبد الرازق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: ٢١١هـ)؛ مصنف عبد الرازق؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، ١-١١، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

عبد العزيز البخاري، عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري الحنفي (ت: ٧٣٠هـ)؛ كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي؛ دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١-٤، بدون طبعة وبدون تاريخ.

العجلوني، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء (ت: ١١٦٢هـ)؛ كشف الخفاء ومزيل الإلباس؛ تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هندawi؛ المكتبة العصرية، ١-٢، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ صحيح مسلم؛ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٥.

المناوي، محمد بن عبد الرؤوف بن علي (ت: ١٠٣١هـ)؛ التعاريف؛ دار الفكر، بيروت، ١٤١٠.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت: ٣٠٣هـ)؛ سنن النسائي؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٨، ١٩٩٢م.

النسفي، لشيخ الإمام أبي المعين ميمون بن محمد النسفي، (ت: ٥٠٨هـ)؛ تبصرة الأدلة في الكلام.